

الفصل السادس

أسباب الضلال في القدر

والسبب في ضلال كل من القدرية النفاة والقدرية المجبرة في هذا الباب أن كل واحد من الفريقين رأى جزءاً من الحقيقة وعمي عن جزء منها، فكان مثله مثل الأعمور الذي يرى أحد جانبي الشيء، ولا يرى الجانب الآخر، فالقدرية النفاة الذين نفوا القدر قالوا: إن الله لا يريد الكفر والذنوب والمعاصي ولا يجبها ولا يرضاها، فكيف نقول إنه خلق أفعال العباد وفيها الكفر والذنوب والمعاصي.

والقدرية المجبرة آمنوا بأن الله خالق كل شيء، وزعموا أن كل شيء خلقه وأوجده فقد أحبه ورضيه.

وأهل السنة والجماعة أبصروا الحقيقة كلها، فأمنوا بالحق الذي عند كل واحد من الفريقين، ونفوا الباطل الذي تلبس به كل واحد منهما.

فهم يقولون: «إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً، فهو لا يجبها، ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها وينهى عنها»

وهذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجباً أو مستحباً.

ولو قال: إن أحب الله حنث إن كان واجبا أو مستحبا.
والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان:

إرادة قدرية خلقية، وإرادة دينية شرعية.

فالإرادة الشرعية هي المتضمنة المحبة والرضى، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات.

فالإرادة الشرعية كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(١)، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾^(٢) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٣) والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما^(٤) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٥). وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٦).

فهذا النوع من الإرادة لا تستلزم وقوع المراد، إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة، وهذه الإرادة تدل دلالة واضحة على أنه لا يجب الذنوب والمعاصي والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءها خلقا وإيجادا.

وأنه يجب ما يتعلق بالأمر الدينية ويرضاها ويثيب عليها أصحابها، ويدخلهم الجنة، وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين^(٧).

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) سورة المائدة: ٦.

(٣) سورة النساء: ٢٦ - ٢٨.

(٤) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٥) راجع شرح الطحاوية: ص ١١٦. ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٨٨/٨ - ٥٨.

وهذه الإرادة تتناول جميع الطاعات حدثت أو لم تحدث^(٦).

والإرادة الكونية القدرية هي الإرادة الشاملة لجميع الموجودات، التي يقال

فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة مثل قوله تعالى:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا

حَرَجًا﴾^(٧). وقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ

يَغْوِيَكُمْ﴾^(٨). وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُفَعِّلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٩).

وقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَأَقُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(١٠).

وهذه الإرادة إرادة شاملة لا يخرج عنها أحد من الكائنات، فكل الحوادث

الكونية داخلة في مراد الله ومشيته هذه، وهذه يشترك فيها المؤمن والكافر والبر

والفاجر، وأهل الجنة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، وأهل طاعته الذين يحبهم

ويحبونه، ويصلي عليهم هو وملائكته، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم

ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون^(١١).

وهذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي دون ما لم يحدث

منها^(١٢).

(٦) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٩٨/٨.

(٧) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٨) سورة هود: ٣٤.

(٩) سورة البقرة: ٢٥٣.

(١٠) سورة الكهف: ٣٩.

(١١) راجع: شرح الطحاوية: ص ١١٦ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٩٨/٨، ٥٨.

(١٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٩٨/٨.

والمخلوقات مع كل من الإرادتين أربعة أقسام:

الأول: ما تعلق به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أرادته إرادة دين وشرع، فأمره وأحبه ورضيه، وأرادته إرادة كون فوقه، ولولا ذلك ما كان.

والثاني: ما تعلق به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين، وهو يجبهها ويرضاها وقعت أو لم تقع.

والثالث: ما تعلق به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي، فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يجبهها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا ما لم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصي^(١٣).

والسعيد من عباد الله من أراد الله منه تقديرا ما أراد به تشريعا، والعبد الشقي من أراد به تقديرا ما لم يرد به تشريعا، وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله ببعضه ببعض، علموا أن أحكام الله في خلقه تجري على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيرا، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو نظر إلى القدر دون الشرع كان أعور، مثل قريش الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا

(١٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٨٩/٨.

وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ ﴿١٤﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٥﴾﴾ (١٦).

(١٤) سورة الأنعام: ١٤٨.

(١٥) سورة الأنعام: ١٤٨.

(١٦) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٩٨/٨.